يا دار!

﴿ لرشيد أيوب ﴾

لله علم الخفايا وما تكن الطوايا
هيهات اسلو ديارا قضيت فيها صبايا
فيها الرفاق اقاموا ثم استحثوا المطايا
يا قلب لولا التأسي لطرت مني شظايا
لا بد تصفو الليالي وفي الزوايا خبايا
وانت، يا حسن صبري، لولاك رثت قوايا
يا نجم، لو كنت تبكي، لما بكيت سوايا
فكم سهرت الليالي اشكو اليك هوايا
يا دار، هل فيك باقٍ ما بين تلك البقايا؟
حملت نفسي هموماً كأنها حملايا
بيني وبينك بحر تموج فيه المنايا
حرب ضروس، ولكن احداثها في حشايا
لا طاوعتني القوافي حتى وشلت يدايا
اذا انتضيت يراعاً وما طعنت عداياً
فصادقي، يا دراري وسجلي، يا برايا
حتى يجيء زمان حر كريم السجايا
العرب فيه ملوك والترك فيه رعايا

الجوع

﴿ لامين الريحاني ﴾

* * *

اذا نضبت في البلاد الانهار ، واستحالت السماء نحاساً حامياً ترسل اشعة شمسها نقمة وانتقاماً ، فتحرق الاشجار ، وتأكل النبات ، وتجفف الارض ، وتجعل الحقول كالصحراء ، يحدث في الناس مجاعة لا يد جانية فيها للانسان

واذا غزا الجراد زرع امة ومروجها ، يلتهم الاخضر واليابس كشس النفود في الصيف ، فلا يترك وراءه شيئاً يصلح للغذاء ، يحدث في البلاد مجاعة لا يد اثيمة فيها للانسان .

واذا القى الوباء في امة عصاه ، وشرع يفتك فيها فتكاً ذريعاً أوجب عليها النطاق الصحي فابعدها من خيرات الارض خارج تخومها ، قد تجيء عليها مجاعة لا يد جانية فيها للانسان

واذا كانت امة في حرب فحاصرها العدو وحبس عنها الزاد فأبت التسليم صاغرة ، قد تهلك جوعاً ، ولا ذنب في ذلك على العدو او عليها اما اذا رضخ الجيش المحاصر ارضها وأبت البقية الباقية الرضوخ والاستكانة ملجة في العصيان فقد يتخذ الفاتح التجويع طريقة للاستيلاء التام وقد يكون الذنب في ذلك عليها .

ولكن امة طائعة اولياء امرها ، امة مخلدة الى السكينة ، امة بريئة طاهرة

الذيل ؛ تربأ على الضيم صبورة ، سكوتة ، جلودة ، تربتها في الاقل لم تزل جيدة ، انهارها لم تزل جارية ؛ سماؤها لم تزل مقيمة على عهودها توسل فيها خيراً شتآء ربيعاً — في مثل هذه الامة لا تحدث مجاعة الا لاحد امرين — لجهل فيها او لجور في اولياء امرها ·

والمجاعة التي لا يد فيها للطبيعة او للقضاء او لله انما هي جناية الانسان الكبرى على اخيه الانسان ·

ان خيرات الارض لتكفي ابناء الارض وان التكافل والتعاون لمن اوليات الوجود الانساني الحضري منه والمدني · فاذا اغفلنا الان البحث في اسباب المجاعة ونظرنا في نتائجها فقط تحتم علينا النظر ايضاً في الطرائق الفعالة لازالتها — ولازالتها سريعاً ·

امة صغيرة في بقعة قصية من الارض تتضور اليوم جوعاً · وامة كبيرة عزيزة الشأن عظيمة الصولة يفيض عنها من خيراتها أليس من العدل اذاً — بل من الواجب المقدس ان نأخذ مما فاض عن هذه لنطعم تلك الجائعة ؟ نعم · وما يصح في الامم يصح في الافراد · وهذا التعديل في خيرات الارض عدل لا فضل فيه لمن اعطى ولا شكر عليه ممن قبل العطاء

الامة المنكوبة امتنا ايها الناس · الجياع فيها اخواننا · وان الفائض عنا اليوم لا حق لنا به البتة · لا وا لله · ليس ما فاض من خيرنا اليوم لنا بل هو للجياع في بلادنا · ولو كنت من اولي السيادة والسلطان لاخذت اليوم من الشبعان لاطعم الجائع — لفرضت على كل سوري مقداراً من المال

يدفعه راضياً او مكرهاً ·

وماذا يضر السوري لو دفع اليوم دولاراً واحداً لاغاثة اخوانه في الوطن· دولاراً واحداً عَلَى كل سوري الفقير والغني سواء·

اني من اصحاب الرأي لا اصحاب السيادة لذلك لا استطيع ان اضرب ضربة هي حق والله عَلَى كل سوري · ولكني عملت بطريقتي وبحقي فدعوت اخواني في المهجر في مقال سبق الى الصوم يوماً واحداً يدفعون ما يوفرون في هذا اليوم اعانة للمنكوبين · وقلت اننا اذا خبرنا الجوع نرثي لحال الجائع فنسرع لاغاثته ·

وكي لا يقال اني ابشر بما لا افعل بدأت بنفسي عاملاً برأيي · فاني محاسب لقلبي اذا مال وللساني اذا قال · لذلك صمت عن الاكل والشرب والتدخين يومين وصالاً · ودفعت نفقة اليومين الى اللجنة وجئت في هذا المقال اطلع القارىء عَلَى ما خبرته من نتائج الصوم ومفعول الجوع

فاذا كانت كلمتي في الصوم ذهبت ادراج الرياح عسى ان يؤثر عملي فيحمل اخواني في المهجر عَلَى الاقتداء بي

من الساعة السابعة مساء حين بدأت اصوم حتى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم الثاني لم اشعر قط بالجوع · ولكنني احسست بطنين في اذني وبجفف في لساني · وبشيء من المرّة في فمي · عَلَى اني في الساعة السابعة اتي بعد مرور اربع وعشرين ساعة بدأت اشعر نوعاً بالجوع وبالعطش وبشيء من الدوار ·

كنت اصيل هذا النهار اتمشى وصديق لي في احد شوارع المدينة فمررنا بمطعم وصفت في شباكه انواع الخبز والكعك والحلويات فوقفت امام الزجاج الحائل دوني وتلك الجنة ناسياً ذاتي امثل في نفسي ولداً فقيراً جائعاً لا فلس في يده يفثأ به سورة جوعه . اخترقت الزجاج عيناي وما فيهما من نهمة الى الاكل فتحلب اللعاب في فمي فغصصت بمر مذاقه وترغرغت عيناي بالدموع . هذا وانا لا اشعر حقاً بغض الالم في معدة فارغة وقلب يفتر شوقاً لاني اجوع مختاراً والمسكين الذي صورته امامي بل امام تلك الملأ كل المصفوفة ورآء الزجاج يجوع مكرهاً . ان جوعي ينتهي ساعة اريد واما جوعه فلا يزول الا ساعة يتصدق عليه احد المحسنين . فقلت في نفسي ان حالة اجتماعية توجد مثل هذا المسكين الجائع لحالة ذميمة ، منكرة ، فاسدة ، جهنمية . واذا كانت كذلك فكيف بها والمسئولون عنها يجوّعون عمداً امة باسرها ؟

لقد شارفت كتك جوعك يا اخي فتعال اقاسمك كسرتي . عله تعالى يبعدني من ذل الحاجة والاستجداء الذي هو اشد وبلاً من مضض الالم الذي يولده الجوع . ألا فليردد كل سوري هذا الكلام — هذا الابتهال وليمثل حول مائدته الفاخرة صبياً فقيراً عضه الجوع ، انهكه ، اقعده ، اضناه ، ثورته المزال والخجل ، فيسارع الى اغاثته .

ومن غريب امر الصوم ان صاحبه لا يشعر بالجوع الا في الساعات التي اعتاد ان يأكل فيها . فاني بعد ان نت الساعة العاشرة استفقت نصف الليل

ولا اثر في نفسي للصوم ، كأني قضيت البارح وقد كلت على عادتي ثلاث مرات ·

ولكنني نهضت صباح اليوم الثاني وفي ساعة الفطور نهمة الى الاكل · وهذا لا شك من قبيل العادة · على ان مظاهر الجوع ازدادت نوعاً وشدة · فتحت فمي فاذا به كالقطن جفافاً · بلعت ما تحلب من رضابي اذ مررت بركوة القهوة فاذا به امر من الحنظل · نظرت الى لساني فاذا به ابيض كالحليب · لمسته باصبعي فاذا به كعباءة الراهب خشونة · اما اذناي فازدادتا طنيناً · واحسست ان رأسي جسم غريب راكب موقتاً بين كتفي · نزلت الدرج وعدت الى غرفتي فألمت بي نوبة من الارتعاش شديدة اقعدتني بضع دقائق وانا ارتجف حتى اطرافي · وكنت اثناء ذلك احس بموجات حارة تتماوج في داخلي وبالاخص في جدار المعدة

فقلت في نفسي قد عضك الجوع يا رجل · قد دنوت من اخوانك في الوطن · نعم بدأت في اليوم الثاني اشعر بالجوع واتألم من شعوري · فهذا الضعف في رجلي وبالاخص في مفاصلي وركبتي ان هو الا احتجاج المعدة على صاحبها ، بل على باريها ، بل على من في ايديهم خزائن الارض المسئولين عن توزيع خيرات الدنيا على عباد الله

مررت بركوة القهوة ثانية فوقفت امامها راغباً متردداً · ثم امتنعت لاني آليت على نفسي ان اصوم يومين كاملين · وفي البيت المقيم فيه اناس في الدور الاسفل يطبخون طعامهم فتتصاعد احياناً روائح المطبوخات فتسطع

في منزلي وتزعجني جداً . ولكن اليوم يوم الصوم والجوع — فان امرءاً يقتر شواء يتصاعد صوت نشيشه من فوق النار الى منزلي لاحب عندي من مطرب او مطربة . وان روائح الشواء والابازير في انقى لالذ من روائح المسك والبخور .

ولّت ساعة الفطور وولى معها مضض الجوع ولا غرو ، فان للعادة حتى في الاكل كما قلت تأثيراً شديداً فينا . اذ ما السبب يا ترى في رغبتي بالطعام في ساعات اعتدنا ان نتناوله فيها وفي نسيانه بل الرغبة عنه في الفترات بينها ؟ اما الفكر مني ففي اليوم الاول من صومي كان لم يزل رائقاً صافياً ، ولكنه في اليوم الثاني اصبح خاسئاً حسيراً

ومن غريب امر الصوم ايضاً ان الذي يصوم يومين يستطيع ان يصوم خمسة بل عشرة ايام وصالاً . فانا في مساء اليوم الثاني لم اشعر بشهوة الى الاكل شديدة كمساء اليوم الاول . وقد قرأت اخبار اناس صاموا اسبوعين وثلاثة دون ان يتعطل فيهم عضو من اعضائهم الحيوية كالكبد او الكليتين او الرئة او القلب .

ومعلوم ان الاقدمين كانوا يكثرون من الصوم والتنحس . وقد قال ابن خلدون — « وقد شاهدنا من يصبر على الجوع اربعين يوماً وصالاً » .

على انه لا ينكر ان الصوم اياماً وصالاً ينقد المرء قواه الجسدية والعقلية فان العضلات والاعصاب لتتقلص وتذوب من الاقيات مما كونت منه وان العقل ليخسأ ويمرض من تشرب دم لا غذاء فيه . اي ان الصائم طويلاً

الطاوي اياماً يعيش على لحمه ودمه ، يأكل بالحقيقة نفسه · نعم اخواني ؛ ان الجائع يعيش على لحمه ودمه ، والجائع كرهاً يقاسي من مضض الذل — ذل الحاجة وذل الطلب — ما هو اشد من مضض الجوع

كتبت مرة نبذة انتقد فيها بعض التعابير العربية التي نرددها نحن الكتّاب وقلما نتحقق تمام معناها · من جملتها قولنا · « الجوع المدقع » فاستغربت اذ عدت الى القاموس النعت وقلت ان لا احد يجوع جوعاً يلصقه بالدقماء اي التراب · فمهما اشتدت سورة الجوع لا تبلغ درجة يصح ان ننعتها بالدقوع ، ولكني تحققت اليوم خطأي ، فان الجوع يوهن ، يهزل ، ينهك ، يقعد ، يهلك · واذا كان الجائع هائماً في البرية يطلب الاعشاب يقتات بها فليس من الغريب ان يسقط في الطريق من شدة الجوع · نعم رأيت كلاب السوق في الشرق في جوع ألصق بطونهم ووجوههم بالتراب ، وكنت اجل البشر عن ذلة الكلاب وجوعهم ·

فوا اسفاه ! اننا لنتحقق اليوم من حال بلادنا صحة التعبير العربي بل نحققنا التقصير فيه لا الغلو · مئات بل الوف من اخواننا مطروحون اليوم في الطرق والاسواق تتلاشى اجسامهم عضواً عضواً · عيونهم شاخصة الى الشمس نهاراً الى السماء والنجوم ليلاً · يسألون باري الاكوان كسرة من الخبز · قلوب واجفة ، ابصار خاشعة ، نفوس حزينة حتى الموت ، معد تلتصق بالاضلع منهم كما تلتصق اجسامهم بالدقماء — بالتراب · في فمهم المرّة الصفراء — مر الحياة — يبتلعونها ثم يبتلعونها ، في اعصابهم المتقلصة غصص

الرعشة ، في اجسامهم المرض والوهاء

شيوخ واطفال ، نساء ورجال ، يسارعون الى المدينة من الجبال عليهم يلتقطون في اسواقها ومن فضلات ذوي اليسار فيها كسرة من الخبز فيتساقطون في الطرق كورق الخريف وقد استحوذ عليهم الجوع المدقع . أفلا تشاركهم جوعهم يوماً واحداً ايها السوري ! أفلا تمدهم بنفقة يوم من ايام يسرك !

ووالله لو مرّ بهؤلاء المناكيد الجياع وحش ضار او عقاب كاسر لمال بوجهه عليهم ، لرثي لحالهم . واننا نعلم ان في الحيوان غريزة هي اشرف من غريزة الانسان التي افسدتها المدنية والتكالب فيها . فمن الطيور من يطعم صغارها من قلبها اذا لم تجد لهم رزقاً .

فيا ايها السوري النائي عن اخوانك المنكوبين جثت اخبرك خاشعاً لا مفاخراً اني صمت يومين فانهكني . اقعدني يوم واحد من الجوع . فكيف بمن يصومون اياماً بل اسابيع ؟ اليوم ! اليوم ! من كان غنياً فليستعفف ! من كان متردداً في التبرع فليتقدم ! من كان متقاعداً فلينهض ! من كان في سبات فليستفق ! وما الفائدة من القول غداً غداً فان مثل هؤلاء المستحجرة قلوبهم يلوّحون بثريدتهم للجائع الاقرب الى الضاري من الحيوان منهم الى الانسان .

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

الصوم ! التقشف يوماً واحداً ! تملكون تلك النفس منكم الثارهة الى اللذات فان مثل هذه السيادة على انفسكم لاشرف من وجاهة يجرها لكم

المال . صوموا يوماً واحداً وتصدقوا علينا بدء لاربين مما رزقتم . الامة امتنا جائية على قارعة الطريق تئن من ألم الجوع — الجوع المدقع ، الجوع المهلك . فهلا تسارعنا ، بل تسابقنا الى اغاثتها ؟ « أليس بلسان في جلعاد ؟ »

من يسير ما تنفقه على الملاذ في المطاعم والمشارب ، ومن قليل ما تصرفه على الملابس الفاخرة ، تجد على ابن جنسك الساقط في ساحة البلاء حيث ينكر الاخ اخاه ، والابن اباه ، ايها المعطر اردانه ، المفاخر اخوانه ، المعجب بلباسه ، الجائر على ناسه ، الراكب العربة يقودها زوج من الخيل العتاق ، الساكن القصر المشيد ، اللابس الحرير ، الآكل الفالوذج ، الشارب انواع الراح .

ومن قليل ما تنفقين على باطل الزينة ، وزائل التحسين ، ونزر ما تبذلين في اقتناء الحلى والحلل ، ايتها المفاخرة بزينتها ، المنافسة في حليها ، جودي وابسطي يدك البيضاء بالعطية البيضاء واحسني وانت حسناء ، فخير الاحسان ما كان مع الاحسان ، وخير الاحسان ما كان في اعانة الانسان .

اديب اسحق